المبحث الثامن

حُسْنُ التعليل والتشبيه

قد يأتى التشبيه مشتبكا مع حسن التعليل فيتساءل متسائل : ما العلاقة التى تجمع بين هذا وذاك ؟ ، لكن بقليل من التأمل وإمعان النظر يتجلى لنا أن التخييل المعلل قد يأتى فى بعض صوره معتمدا على التشبيه فى التقريب من الحقيقة ، وهو فى ذلك يعتمد على ذكاء الشاعر وشدة لماحيته فى ملاحظة ضروب من العلاقات التى تعطى حسن التعليل شبها من الحق ورونقا من الصدق ، وقد مدح الإمام عبد القاهر تلك الطريقة وهو يتحدث عن التعليل المخيل فقال : « وينبغى أن تعرف أن باب التشبيهات قد حظى من هذه الطريقة بضرب من السحر لا تأتى الصفة على غرابته ، ولا يبلغ البيان كنه ما ناله من اللطف والظرف ، فإنه قد بلغ حدًّا يبز المعروف فى طباع الغزل ، ويلهى الثكلان ، وينفث فى عُقَد الوحشـــة ، وينشد ما ضل عنك من المسرَّة ، ويشهد للشعر بما يطيل لسانه فى الفخر ، ويبين جملة ما للبيان من القدرة والقدر »[1] .

والعلاقة بين التشبيه وحسن التعليل فى ذلك ربما تكون راجعة إلى أن أصل كل واحد من الفنين مركوز فى طباع النفس الإنسانية ومطمور فى أعماقها ، وذلك لأن التشبيه قائم على القياس كما يقول الإمام عبد القاهر : « والتشبيه قياس يجرى فيما تعيه القلوب وتدركه العقول وتستفتى فيه الأفهام والأذهان، لا الأسماع والآذان »[2] ، والقياس كما يقول علماء الأصول : « رد الفرع على الأصل بعلة »[3] فهما بذلك يعدان من مرتكزات الفطرة الإنسانية إلا أن بينهما فرقا من حيث مادة كل منهما ،

(١) ينظر أسرار البلاغة ٢ / ٤٥ . (٢) ينظر السابق ١ / ١١٢ .

(٣) ينظر حاشية النفحات على شرح الورقات ص ١٤٣ الخطيب الحاوى ط مصطفى البابى الحلبى .

وذلك أن مادة التشبيه موجودة ومنبثة فى أعماق الكائنات ، وما دور الشاعر فيها إلا أنه كالغائص على الدر ، فيقوم بالتقاط هذه المقايسة ؛ بخلاف حسن التعليل فإن المادة فيه قائمة على التخيل وهو كما يقول الإمام عبد القاهر : « ما يثبت فيه الشاعر أمرا غير ثابت أصلا ويدعى دعوى لا طريق إلى تحصيلها ويقول قولا يخدع فيه نفسه ويريها ما لا ترى »[1] .

ومع ذلك وعلى الرغم من التباعد بين التشبيه وحسن التعليل إلا أن الشاعر الحاذق الماهر فى صنعته الفنية يستطيع أن يجعل بينهما تعانقا وتشابكا وثيقا ، وذلك حين يجعل التشبيه مقدمة دعوى ويجعل التخييل احتجاجا لتلك الدعوى ويكون نوع الاحتجاج أمرا لا ينكر بل هو موجود بيد أنه فى غير عالم ما ادعى له فى تلك المقدمة البادية فى أسلوب تشبيهى ، فإذا التخييل شبيه بالحقيقة لاعتدال أمره ، وأن ما تعلق به من العلة موجود على ظاهر ما ادعى[2] .

وأوضح الإمام عبد القاهر أن ذلك يجىء على طبقات ويأتى على درجات :

فمنه ما يجىء مصنوعا قد تلطف فيه واستعين عليه بالرفق والحذق حتى أعطى شبها من الحق وغشى رونقا من الصدق باحتجاج يخيل وقياس يصنع فيه ويعمل ، ومثاله قول أبى تمام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكـان العالى

فهذا البيت كما يتجلى لنا اعتمد على دعامتين أساسيتين فى التصوير هما : حسن التعليل المعتمد على التشبيه الضمنى فى تقريب الحقيقة ، وكما يقول الإمام عبد القاهر : « قد خيّل إلى السامع أن الكريم إذا كان موصوفا بالعلو والرفعة فى قدره ، وكان الغنى كالغيث فى حاجة الخلق إليه وعظم نفعه وجب بالقياس أن ينزل عن الكريم نزول ذلك السيل عن الطود العظيم ، ومعلوم أنه قياس تخييل وإيهام لا تحصيل وإحكام ، فالعلة فى أن السيل لا يستقر على الأمكنة العالية أن الماء سيال لا يثبت إلا إذا حصل فى موضع له جوانب تدفعه عن الانصباب وتمنعه عن الانسياب وليس فى الكريم والمال شىء من هذه الخلال[3] .

---

(١) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٣٦ .

(٢) ينظر : التحبير ص ١٧٨ وما بعدها د . محمود توفيق محمد سعد .

(٣) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٢٨ ، ١٢٩ .

فالشاعر - كما يقول الدكتور / محمد أبو موسى -: « وهو يعلل هذا النهى عن الإنكار بأن السيل لا يستقر فى الأماكن العالية يطوى وراء ذلك : تشبيه الكريم بالقمة العالية وأنه بين القوم متميز تميز الهضبة عن السهول والبقاع وكأن ذلك أمر مفروغ منه ، وإنما نصبة الكلام وهيئته أن ينبه صاحبته إلى ما ينبغى أن تتنبه إليه من أن الكرام ليسوا هم الذين يتقممون المال كما تلحس الكلاب الجيفة بلسانها وإنما هم هؤلاء القمم الشامخة التى ينحدر عنها السيل إلى تلك البقاع العفنة ... والشبه بينهم وبين قمم الروابى ليس موضع الحديث ، وإنما القصد إلى أن ينبه إلى ما يقتضيه ذلك من عدم التعجب من قلة المال فى أيديهم ، وهذا معنى جليل جرى فى أسلوب مقتدر على الوحى بالمعنى ، وبثه فى القلب بطريق خفى خالب »[1] ، ومرجع ذلك إنما هو إلى فنية الصنعة من الشاعر ، حيث بنى حسن التعليل على ذلك التشبيه الضمنى المنبث فى تلك المضامين الشعرية .

وأكثر ما يجىء هذا الضرب من التعليل المخيل القريب من الحقيقة فى باب التمثيل الشاخص فى أعقاب المعانى ، ويتضح ذلك فى قول الإمام عبد القاهر : « فتأمل بيت أبى تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

مقطوعا عن البيت الذى يليه ، والتمثيل الذى يؤديه ، واستقصى فى تعرف قيمته على وضوح معناه وحسن مزيته ، ثم أتبعه إياه :

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

وانظر هل نشر المعنى تمام حلته ، وأظهر المكنون من حسنه وزينته ، وعطرك بعرف عوده وأراك النضرة فى عوده وطلع عليك من مطلع سعوده ، واستكمل فضله فى النفس ونبله ، واستحق التقديم كله إلا بالبيت الأخير وما فيه من التمثيل والتصوير[2] .

فأبو تمام يثير قضية ويعلل لها بأمر لا ينازع فيه من واقع الحياة فأكد القضية وجعلها راسخة وثابتة فى نفس المستمع ووجدانه[3] .

فالإمام عبد القاهر يشير إلى أن التعليل المخيل قد يأتى معتمدا على التشبيه

(١) ينظر: التصوير البيانى ص٧٥، ٧٦ د . محمد أبو موسى ط مكتبة وهبة بالقاهرة.

(٢) ينظر : أسرار البلاغة ١ / ٢٢٩ .

(٣) ينظر : التحبير ص ١٨١ ، ١٨٢ د . محمود توفيق محمد سعد .

كمـا مر ، وكما فى قوله :« ومن هذا النمط العالى فى أنه تخييل شبيه بالحقيقة لاعتدال أمره وأن ما تعلق به من العلة موجود على ظاهر ما ادعى قوله :

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا إن السـماء ترجى حين تحتجب

فاستئار السماء بالغيم هو سبب رجاء الغيث الذى يعد فى مجرى العادة جودا منها ونعمة صادرة عنها[1] . فالملاحظ فى ذلك أن الشاعر معتمد فى التعليل لقضيته على التشبيه الضمنى ، وذلك مما يعطى العلة بهاء ورونقا وحيوية فى التشخيص وإظهار ما ليس بواقع معللا كأنه واقع ، ومنه أيضا قول مسلم بن الوليد :

إن يقعدوا فوقى لغير نزاهة وعلوّ مرتبـه وعز مكـان

فالنار يعلوها الدخان وربما يعلو الغبار عمائم الفرسان[2]

حيث جعل علو الدخان فوق النار وعلو الغبار عمائم الفرسان علة فى ارتفاع الأسافل على الأكابر وذلك أيضا مبنى على التشبيه الضمنى .

وقد لا يكون « حسن التعليل » معتمدا على التشبيه ، وهـذا ما بينه الإمام عبد القاهر بقوله :

فمن الغريب فى ذلك معنى بيت فارسى :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليـها عقد منتطق

فهذا ليس من جنس ما مضى أعنى ما أصله التشبيه ، ثم أريد التناهى فى المبالغة والإغراق فى الإغراب »[3] .

ويشير الإمام عبد القاهر أيضا إلى « حسن التعليل » الواقع بين الضربين الماضيين فيقول : « ويدخل فى هذا الفن قول المتنبى :

لم يحك نائلك السحاب وإنما حمّت به فصبيبها الرحضاء

لأنه وإن كان أصله التشبيه من حيث يشبه الجواد بالغيث وأنه وضع المعنى وضعا وصوره فى صورة خرج منها إلى ما لا أصل له فى التشبيه فهو كالواقع بين الضربين[4] ، ويقول الشيخ محمد الخضر حسين - رحمه الله تعالى - وربما يصاغ التعليل فى قالب التشبيه كقول أبى تمام :

---

(١) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ٣٨ ، ١٣٩ .

(٢) ينظر : ديوان صريع الغوانى ص : ٣٤٢ القطعة ١٨٩ تحقيق د . الدهان طـ ثانية دار المعارف بمصر .

(٣ ، ٤) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٣٨ ، ١٣٩ .

ربى شفعت ريح الصبا لرياضها إلى المزن حتى جادها وهو هامع

كأن السحاب الغرّ غيبن تحتهـا حبيبـا فمـا ترقا لهـن مدامع

فلو حذفت أداة التشبيه هنا لكان الباقى بمنزلة العلة الخيالية لنزول الغيث المنسجم من ينابيع السحاب واقترانه بأداة التشبيه يجعله يسكت عنه العقل ولا يمانعه من أن يدخل فى سبيل المعانى الصادقة ، ومما نظمت على المثال وكان الجو يقذف وقت السحر ينثار الثلج :

تطاول هذا الليـل والجو مزبد فضاقت بأمواج الثلوج مسالكه

كأنى أذيب الصبح بالحدق التى يقلبها وجـدى وتلك سبائكه[1]

وهكذا تتجلى لنا من خلال التحليلات الرائدة لهذا الفن من الإمام عبد القاهر مدى البراعة والدقة فى هذا اللون البلاغى ، وروعة التصوير والتشخيص فى محاولة تقريب الخيال من الحقيقة .

وحقا كما يقول العلامة ابن جنى : « إن من يديم التنقير والبحث والتأمل فى هذه اللغة المباركة ليجد أنها تملك من الحكمة والدقة والإرهاف والرقة ما يملك على جانب الفكر ، حتى يطمح به أمام غلوة السحر »[2] .

* * *

(١) ينظر : الخيال وأثره فى الشعر العربى ص: ٢٨ ، ٢٩ الشيخ محمد الخضر حسين.

(٢) ينظر: الخصائص ١ / ٤٨ . ابن جنى تحقيق محمد على النجار ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر .